فنا الابهام والايضاح

فـــي

القرآن الكريم

د. علي جميل احمد

كلية الآداب ـ الجامعة المستنصرية

The Two Arts of unknown and known in Holy Koran

The unknown has its preferable meaning characterized in different meaning and different ideas according to each one and his thinking . The known has its long details. It is different from unknown in aims that is doing. The unknown related to long details and the second gives summery.

بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً : **فـــن الابهـــام**

الكلام المبهم : هو الكلام الموهم الذي يحتمل أكثر من وجه، ولايعرف له وجــه يــؤتى منه، مأخوذ من قولهم حائط مبهم اذا لم يكن فيه باب . وابهام الامر : اشتباهه، أي : لايعرف وجهه [١] .

وذهب السكاّكي إلى ان الابهام في الكلام يتحقق بــايراده مُحــتمِلا لــوجهين مختلفــين متضادين إحتمالا مطلقا أي من غير تقييد أي انه لايرد بعده مايميز المراد منهما، جاعلا إيــاه من المحسنات البديعية المعنوية[٢] .ولقد فرق المصري بين الابهام والاشتراك فقال: (الاشتراك لايقع إلاّ في لفظة مفردة لها مفهومان لايُعلم أيهما أراد المتكلم ، والابهام لايكون إلاّ في الجمل المؤتلفة المفيدة ويختص بالفنون كالمديح والهجاء والعتاب والاعتذار والفخر والرثاء والنَسَــب وغير ذلك ، ولاكذلك الاشتراك)[٣] .

ويجدر بالذكر أن فن الإبهام يقصد إليه المتكلم قصداً حتى أن المــراد (إذا جــرد عــن القرائن ولم ينظر إلى القائل والمقول فيه،كان احتماله للمعنيين على السوية)[٤] .

أما العلوي فقد أشار الى أهمية التفسير بعد الابهام في فصل عقــده لهمــا، قــائلاً : (ان المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهما فانه يُفيده بلاغة ويكسبه إعجابا وفخامة، وذلك لأنــه إذا قرع السمع على جهة الابهام فان السامع له يذهب في إبهامه كلّ مذهب . ومصــداق هــذه المقالة قوله تعالى : (وقضينا إليه ذلك الأمر)[٥] ثــم فســره بقولــه M ¶ ¸ ¹ º » L)[٦] .

---

(١) ينظر : لسان العرب / ابن منظور، مادة (بهم) .

(٢) ينظر : مفتاح العلوم/ السكاكي٢٠٢. وينظر الايضاح / القزويني٣٨٧ .

(٣) شرح عقود الجمان : السيوطي١٢٧، وينظر: تحرير التحبير/ابن ابي الاصبع المصري٥٩٦.

(٤) أنوار الربيع في انواع البديع/ابن معصوم المدني٢/٥ .

(٥) الحجر : ٦٦ .

(٦) الطراز : ٢٤٠ وللمزيد من المعلومات عن الابهام في العربية ينظــر:معجــم المصــطلحات البلاغيــة وتطورها / د.احمد مطلوب ١/٣٧-٤١، ٢/٣٧٩-٣٨٢.

ولنا في ما تقدم من النصوص وقفة نوضح فيها ان حصر الابهام بافادة معنيين متضادين فقط كلام فيه نظر،فلربما أفاد أكثر منهما،وليس بالضرورة ان تتضادد،كما سيتضح في مواضع لاحقة من هذا البحث،ممايزيد هذا الفن قيمة بلاغية أكبر .

فالابهام إذن فن بديعي واسلوب بلاغي عرفه العرب واتخذوه قوام ماشاؤوا من نصوص أرادوا لها ان تنفتح على معنيين أو أكثر لايتميز أحدهما عن الآخر،فأي معنى يحتمله المتلقي قد يكون مراداً من لدن المنشىء .وليس بخفيٍ على أحد ما لذلك من فائدة بلاغية أخرى تتولد عن هذه التي نحن بصددها تتمثل بالايجاز،أي أداء اكثر من معنى بأقل الجمل وهاتان الفائدتان تتجليان في معظم النصوص المبنية عليه .

والحق ان للابهام فائدة ثالثة قد تقوم بذاتها،أغفل ذكرها البلاغيون باستثناء العلوي في طرازه[١] بحسب اطلاعنا،وهي تفخيم المعنى وتعظيمه والمبالغة فيه،ولكنها- أي هذه الفائدة - قلما تلتمس- قياسا على سابقتيها- في النصوص المبنية على هذا الفن الجميل .

وإذا مارحنا نسبر غور الشعر الجاهلي وهو اقدم النصوص المعتد بفصاحتها، فاننا نقف على أمثلة لهذا الفن الذي زيّن بعض نصوصه وجوّد معانيها . ومثال ذلك قول دريد بن الصّمة[٢] :

صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسَهُ فلما علاه قال للباطل أبْعِدِ

فقوله - صبا ما صبا- فيه إبهام يتسع لكل احتمال . فهذا النص منفتح على أي فعل أو معنى يتماشى مع طيش الشباب،وهو مالا يمكن ان يؤديه كلام مباشر قط، لمحدوديته الدلالية المعروفة .

ومثله قول لبيد يصف نفسه[٣] :

ترّاكُ أمكنةٍ إذا لم أرضَها أو يعتلِقْ بعض النفوس حمامُها

فقد عظم لبيد شأن نفسه باستعمال (بعض) التي أفادت الابهام هاهنا، فهو ترّاك كلّ مكان لايرتضيه، مالم يمُت فيه .فعند ذاك - فقط – لايبرحه، فكأن شاعرنا قال : أية نفس كبيرة هي تلك التي احملها . وهكذا تجلت الفائدة الثالثة للابهام التي نبهنا عليها آنفا.

وسئل الحطيئة : من أشعر الناس ؟ فقال : زهير والنابغة، وعقب بانه لوشاء لذكر ثالثا، يريدُ نفسه . ولايختلف إثنان على ان الحطيئة لو كان قد صرح باسمه لما كان قوله بهذه

---

(١) ينظر : ٢٤٠ .

(٢) ديوان دريد ٥٠ .

(٣) ديوان لبيد بن ربيعة ١٧٥ .

البلاغة، فابهامه يجعل المتلقي يفكر بالثالث من عساه يكون ؟ فضلا عما أضفاه ذاك الابهام من تفخيم لشأنه[١] لاسيما ان البلاغيين تعاهدوا على ان عدم التصريح أبلغ من التصريح . وعليه فالابهام أبلغ من الايضاح وأكثر تأثيراً في المتلقي، ذلك ان قوام التماسه التفاعل مع النص والغوص على معانيه، لاستنباطها .

ومن امثلة الابهام في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ ، وهو سيد بلغاء العرب : (اذا لم تستحِ فاصنع ماشئت)[٢] فهذا الحديث يحتمل وجهين متضادين : المدح والذم .فاذا كان النبي ﷺ قد قصد المدح فإن المعنى : إذا أنت واثق من أنك لم تأتِ بمايخجل فافعل ماشئت، لانك عصمت نفسك عن الخطأ . وإن كان قد قصد الذم فان المعنى : إذا كنت بلا حياء يُلجم جماح نفسك الأمّارة بالسوء فافعل ماشئت، لان ذلك لن يكون غريبا عنك مستوحشاً منك، إذ لاشأن لك في باب الحياء .

ولايعني هذا- بأية حال من الاحوال – ان النبي ﷺ يشجع المسرف على دوام الاتيان بقبائح الافعال، فالنبي ﷺ هو المربي لهذه الأمة على الفضائل ومكارم الاخلاق، والاسلام- بعد ذاك- دين الرحمة الذي يفتح المجال رحبا على الدوام للتوبة، ويحض على الابتعاد عن اليأس[٣] . فان قيل كيف يُوجّه الابهام في هذا الحديث إذن ؟قلنا : نعم ان الاحتمالين واردان، فكأن النبي ﷺ يروم تشجيع المعنيّ بالخطاب على محامد الأفعال ان كان المدح مراداً، مثلما يريد تنبيه المسرف وتعنيفه، عله يرعوي ويعود إلى طريق الحق والاستقامة .

وهاك مثالاً ثانياً لهذا الفن في الحديث الشريف تضمنه قوله عليه الصلاة والسلام عندما ذكرعنده أحدهم : (ذاك رجل لايتوسد القرآن)[٤] .

فمن الواضح ان هذا الحديث يحتمل وجهين ذكرهما ثعلب عن ابن الاعرابي : أحدهما المدح، أي أنه لاينام الليل حتى يتوسد القرآن معه . وثانيهما الذم، أي انه ينام ولايتوسده معه، أي لايحفظه[٥] .

أما القرآن الكريم- وهو مدار بحثنا هذا ومحوره – الذي يعدّ القمة في الفصاحة والبلاغة، فقد نزل بلغة العرب ألفاظاً واساليب وفنونا بلاغية كان من بينها فن الابهام الذي

---

(١) ينظر : الكشاف/الزمخشري١/٣٢٥،التفسير الكبير/الرازي٦/١٧١.

(٢) سنن أبي داود / سليمان بن الأشعث ١٢٣/٥ .

(٣) قال تعالى:((قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله)). الزمر:٥٣ .

(٤) المسند/ الامام احمد بن حنبل ٢٨٧/١٢.

(٥) ينظر: أنوار الربيع٦/٢ .

سنورد في قادم صفحات هذا البحث أمثلة له مبينين ما أضفاه هذا الفن البديعي على النصوص التي اكتنزته من جودة الأداء، وإظهار للمعاني على أحسن وجه .

فمن يطلع على قولــه تعــالى : M " # $ % & ' | (* + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 L[1] . يتوقف عند (ورفع بعضهم درجات) متسائلا : من المعنيّ بهذا الكلام، ولم أُبهم ؟. وما من إجابة يجدها ناجعــة ســوى أن فـــن الابهام الذي تجلى في هذا النص أضفى تفخيما بيّنا على منزلة النبي محمد ﷺ ماكان ليُتصــور في حال التصريح به .

فالابهام - هاهنا – يُفهم المتلقي ان النص ينطوي على إقرار ضمني غير مصــرّح بــه بمكانة سيد المرسلين ﷺ التي لاينازعه فيها أحد، فحسبه ان الباري جلّ جلاله خصه بــالقرآن الكريم معجزة خالدة تقف بمفردها شاهداً على عظم شأنه، فكيف الحــال إذا انضــمت إليهــا معجزات كُثرغيرها ذهب المفسرون إلى أنها تفوق الالف[2] . وخلاصة القول ان الابهام فــي هذا النص جيء به (لتفخيم شأنه وللاشعار بانه العلم الفرد الغني عن التعيين)[3] .

ومن يتفكر في قوله تعالى في وصف حال اليهود مع الهــادي البشــير: M 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > L[4] . يجد نفسه بازاء احتمالين :

الأول: احتمال الذم شتما . والمعنى - عندئذ – يكون ان اســمع مــدعوّا عليــك بعــدم السماع، وكأنهم قالوا : لاسمعت، بعد قولهم : اسمع، ويفهم من ذلك أنهم يدعون عليه بــالموت أو الصمم . وهذا الاحتمال هو الأقرب الى القبول تماشيا مع حال المعنيين بما جُبلــوا عليــه وعرفوا به من سوء الخلق . هذا ان كانوا قصدوا بــ(راعنا) الشتيمة على لغتهم .

الثاني: احتمال المدح تعظيما . والمعنى عندئذ : اسمع غيرمُسْمَعٍ ماتكره، هذا ان كــان معنى (راعنا) : انظِرنا وارقبنا[5].

---

(١) البقرة ٢٥٣ .

(٢) ينظر: الكشاف١/٣٢٥،مجمع البيان في تفسير القرآن/الطبرسي١/٣٥٨-٣٥٩. ومن بين تلك المعجــزات انه بعث للناس والجن عامة،وانه خاتم الانبياء،وخص بالشفاعة،وانه اعظم الناس أمة،وانه الظافر بالمقــام المحمود. ينظر: المصدران انفسهما في أعلاه .

(٣) روح المعاني/ الالوسي ٤/٢ .

(٤) النساء ٤٦ .

(٥) ينظر: الكشاف١/٥٤٩-٥٥٠، مجمع البيان٢/٥٥،التفسيرالكبير١٠/٩٥، تفسير البحر المحيط / أبوحيــان ٣/٢٧٤-٢٧٥ .

ويجدر بالذكر ان الاحتمال الأول الذي رجحه المفسرون، مستندين إلى نهج اليهود المشين في تعاملهم مع نبينا الكريم ﷺ لايلغي الاحتمال الثاني، وانما يظل قائما بموازاته مستظلا بمظلة فن الابهام، وتلك سمته كما أثبتنا في مفتتح هذا البحث .

وبتنكير الوجوه في قوله تعالى: M ^] \ [Z Y X W V U T L e d c b a ` _ [1] تحقق فن الابهام، ففي تنكيرها مبالغة واضحة في ماسيطرأ على وجوههم من تغييرات بشعة مخيفة، مما يثير رهبة وخوفا شديدين في نفوس المعنيين .

وقد اختلف المفسرون في تفسير المراد من ذلك التنكير، فمنهم من ذهب إلى ان الوجه سيُشبه القفا، أي تغيب عنه العين والانف والفم والأذن والحاجب، فضلا عن امتلاء وجوههم شعراً لتصبح كوجوه القردة . ومنهم من قال: ان المراد : ذهاب التوفيق عنهم . ورأى آخرون ان وجوههم ستكون إلى الخلف، واقفاءهم إلى الأمام، حتى يمشون القهقرَى، وقيل : ان الابهام مفاده ان تطمس الوجوه عن الهدى، فترد على أدبارها في الضلال، فلا تفلح أبداً[2].

ومن ينظر في هذه التفسيرات المتقدمة يجد ان وجهين يتجاذباها، وجه اعتمد ظاهر اللفظ، أي بحمله على الحقيقة بأن ستطمس الوجوه بتغير معالمها، والثاني اعتمد حمل اللفظ على المجاز بأن ستُسلب منهم سُبل الهداية واسبابها .

والحق أنه لولا فن الابهام الذي تحقق بتنكير الوجوه لما حفز هذا النص المدارك، ولما استدعى كلّ هذه التفسيرات، فالابهام هو الذي صيّره نصا فنيا ثراً بالمعاني التي تثير الاذهان، مُبعدا إياه عن الرتابة اللغوية في اداء المعنى المراد .

وكذا قوله تعالى: M ® ¬ « ª © ¨ § ¦ ¥ ¤ £ ¢ ¡ L — [3] فالابهام يكمن في تنوين (فبظلم) إفادة التفخيم، والمعنى : أي ظلم عظيم هذا الذي اقترفوه فعاد مدعاة للعقاب الدنيوي، ليكون - من بعدُ – سببا لعقاب أخروي حتماً، إذ لم يكن الرحمن الرحيم ليحرّمها عليهم إلاّ لجرم كبير ارتكبوه تعددت وجوهه بحسب ماجاء في آيات تقدمت هذه الآية التي نحن بصددها، بتكذيبهم سيدنا موسى عليه السلام، وقتلهم الانبياء بغير حق، وبأقاويل مفتراة على السيدة مريم عليها السلام، وبقتلهم سيدنا عيسى عليه السلام بحسب اعتقادهم .

---

(١) النساء : ٤٧ .

(٢) ينظر: الكشاف١/٥٥٠-٥٥١، مجمع البيان٢/٥٥-٥٦ .

(٣) النساء ١٦٠ .

تلك إذن وجوه للظلم تسببت بحرمانهم من طيبات كانت حلا لهم، ذكرت مُسبقاً[١] ، الأمر الذي يجعل المتلقي حين بلوغه هذه الآية يُجيل الفِكرَ فيها علّه يعرف بأي واحدٍ أو أكثر من هذه الذنوب التي تكاثرت مساربُها في الظلم حرّمت عليهم تلك الطيبات[٢] . ولايفوتنا التنبيه- هاهنا – على ان(بظلم) هذه أوجزت كل ماتقدمها من آيات سابقات . وهذه فائدة أخرى- اعني الايجاز – تقف إلى جانب فائدة التفخيم، فتحققت بذلك فائدتان بلاغيتان ألقتا على النص جمالا اسلوبيا مميزاً مثيراً لمعانٍ جمة بلفظة واحدة .

ومن أمثلة الابهام في النصوص القرآنية ماورد في قوله تعالى: M¿ À Á Â Ã Ä Å **. L[٣] Æ Ç È É Ê Ë Ì Í Î**

فقوله(ببعض ذنوبهم) والتولي عن حكم الله أحدها فيه إبهام . ذلك ان من يحيد عن طريق الحق متوليا مُعرضا عن تعاليم السماء كثير الذنوب بلاشك، وما هذا الذنب- مع عظمه – إلا بعض تلك الذنوب وواحد منها . أي ان إبهام (بعض) في هذا النص الكريم إنما أفاد تعظيم توليهم وإسرافهم فيه مما يستدعي عقاباً غليظاً بحد ذاته[٤] . وكأن الله سبحانه قال : إنه يكفي أنْ يؤاخذوا بهذا الذنب العظيم وحده، فيكون جزاؤهم الهلاك[٥] .

وبابهام لفظة (هدى) في قوله تعالى M **¦ § ¨ © ª « ¬ ® ¯ ° ± ²**

³ ´ µ L[٦] احتمل النص غير وجه ممكن، فالهداية قد تكون بالنار، باضاءتها له الطريق والاشياء .ولعل الهداية المرادة في هذا الموضع تكون بمن أوقد النار، وكأنه قيل : هادياً، أي إنه سيسترشد بخبرتهم بالمكان بعد أن ضل الطريق، و(هدى) - حينئذ – مصدر سمي به الفاعل مبالغة .وربما قصد أنه سينتفع بهداهم في باب الدين، وكأنه قيل : ذوي هدى، فحيثما وُجد الهداةُ وجد الهدى، و(هدى) - عندئذ – مصدر حُذف منه المضاف[٧] . هذه إذن وجوه احتملتها لفظة (هدى) لمجيئها مبهمة تثير ماتثيره من معان تحمل المتلقي على التفكر، حاملاً

---

(١) ينظر النساء :الآيات ١٥٣-١٥٩.

(٢) ينظر: مجمع البيان١٣٨/٢.

(٣) المائدة ٤٩ .

(٤) ينظر: الكشاف٦٧٤/١، تفسير البحر المحيط٥١٥/٣، روح المعاني٣٢٣/٣ .

(٥) ينظر: مجمع البيان٢٠٤/٢ .

(٦) طه ١٠ .

(٧) ينظر: الكشاف٥٥/٣ .

إياها على ماتحتمله من دلالات قد تكون مرادة، وماكانت هذه المعاني لتحتمل لولا ذاك الابهام الذي اكتنفته .

ومن النصوص القرآنية التي تجلى فيها فن الابهام تاركاً أثراً جمالياً وايحائياً عليها قوله تعالى M **L N M L K J I H** L[1] إذ أبهم الله سبحانه مافي يمين سيدنا موسى عليه السلام ولم يصرح بذكر العصا، فاحتمل ذلك معنيين هما :

أولاً : تقليل شأنها، أي ان عصاك على صغرها وتفردها ستلقف حبالهم وعصيهم على كبر حجمها وكثرتها بإذن الله . وفي ذلك تحقير من طرف خفي لصنع السحرة وكيدهم، من حيث ان قليل الشأن عند الله هذه قدرته، فكيف بعظيمه إذن .

ثانياً : المبالغة في شأنها، أي لاتبالِ بما عندهم على كثرته وكبره، فإن مافي يمينك من العظمة ماسيذهب به جميعاً ويمحقه بإذن الله[2] فإنما((أوثر الابهام تهويلا لأمرها وتفخيما لشأنها وإيذانا بانها ليست من جنس العصي المعهودة المستتبعة للاثار المعتادة، بل خارجة عن حدود سائر افراد الجنس مبهمة....وحاصلهُ ان الابهام للتفخيم كأن العصا لفخامة شأنها لايحيط بها نطاق العلم))[3] .

وعلى أية حال يظل كلا الاحتمالين وارداً . ولذا لم يبُت اهل العلم في أي منهما معنى مراداً من دون الاخر، وتلك غاية فنية يلقي الابهام بظلالها على النص، فبأقل الكلمات تتسع المعاني وتتعدد ويذهب فيها المتأمل كل مذهب .

ونقرأ مما ورد في القرآن الكريم على لسان فرعون M **Õ Ô Ó Ò Ñ Ð Ï Î Í Ö × Ø Ù Ú Û Ü Ý Þ** L[4] فنلحظ الابهام في قوله **(وفعلت فعلتك التي فعلت)** مريداً- أي فرعون – القدح في نبوة موسى من خلاله، فكأنه قال : أية فعلة كبيرة تلك التي فعلتها، ولم يذكرها صراحة لما في ابهامها من مبالغة في أمرها وتعظيم لشأنها،فكانت بمثابة قوله : الفعلة التي عظم امرها، وهي قتل القبطي[5] .

---

(١) طه ٦٩ .

(٢) ينظر: الكشاف٣/٧٥-٧٦، التفسير الكبير٢٢/٧٣ .

(٣) روح المعاني ٨/٥٤٠ .

(٤) الشعراء ١٨-١٩ .

(٥) ينظر: أمالي المرتضى/ الشريف المرتضى١/٣٥٠، الكشاف٣/٣١١،مجمع البيان٤/١٨٧، التفسير الكبير٢٤/١٠٩ .

وهل كان التصريح بها سيؤدي هذا المعنى بهذه الصورة البليغة ؟ الجواب حتماً : لا، إذ لو كان صرح بقتله القبطي تهمةً، لمرت على المتلقي - أياً كان - بشكل طبيعي، لان مباشرة المعنى لاإثارة فيه ولا مدلولات تستوحى .

وتجلى الابهام في قوله تعالى M ¤ ¥ ¦ § ¨ © ª « ¬ L[1] أي إبهام تعيين وقت المعجزة بقوله (في بضع سنين) لما في ذلك من تفخيم يدخل الرعب في نفوس المشركين على الدوام، فليس ماهم فيه من خيلاء وتعالٍ إلاّ إلى زوال يوما ما بهزيمتهم بتقويض ماجعلهم يتمادون في غيّهم، ولكن متى يكون تحديداً ؟ لاعلم لهم البتة وذاك مايرهبهم ويحيرهم ويقضِ مضاجعهم دائما، من حيث أن البضع ذو دلالة مبهمة غير محددة العدد على وجه اليقين[2] .

وتصادفنا نصوص قرآنية يجمعها نسق واحد يتحقق من خلاله فن الابهام كقوله تعالى: M L P O N M L L[3] . فقد شاء الله سبحانه إبهام ما أوحاه إلى عبده محمد ﷺ ليكون محل تفكر وتأمل واسعين . وإنما أريد بابهامه تعظيم أمر الوحي، فكأنما قيل: أوحى إلى عبده أمراً عظيما. ومن المفروغ منه ان الابهام أعلى بلاغة من التصريح به، ففي قوله (ماأوحى) بمافيه من إبهام ((تفخيم للوحي الذي أوحي إليه. قيل : أوحي إليه ان الجنة محرّمة على الانبياء حتى تدخلها وعلى الامم حتى تدخلها امتك))[4] .

ومثله قوله تعالى في معرض خطاب نبيه موسى عليه السلام : M ! " # $ % & L[5] .ففي .ففي هذا النص إبهام أفاد تعظيم ما أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى أم موسى . ويجدر بالذكر ان الابهام زاد الوحي تعظيما على عظمته، لان وحي الله عظيم حتما وإلاّ لما كان حريا بان يكون وحيا إلهيا .

ومثل النصين المتقدمين قوله تعالى: M 4 5 6 7 8 9 : ; L[6] ففي قوله (ماغشيهم) ((تعظيم للأمر وتفخيمه، كما يقول القائل : فعل فلان مافعل، وأقدم على ما

---

(١) الروم٣-٤ .
(٢) البضع مابين ٣-٩، أو٣-١٠ على خلاف .
(٣) النجم ١٠ .
(٤) الكشاف٤/٤٢١ .
(٥) طه ٣٨ .
(٦) طه ٧٨ .

أقدم إذا أراد التفخيم))[1] . فالابهام في هذا النص أفاد تهويل ماغشيهم من الماء مما لاطاقة لهم برد تبعاته، حتى انه لايقدر أحد على التكهن بكمه وحجمه وأثره . وعدّ الزمخشري ذلك من باب الاختصار، بايجاز المعاني الكثيرة ((أي غشيهم مالايعلم كنهه إلاّ الله))[2] .

واشتمل قوله تعالى: M × ÙØ Ú Û L [3] على موضعين شخص فيهما فن الابهام . ففي قوله (غدا) تهديد غير مباشر لثمود، وهو أوقع في نفوسهم، إذ قصد به ساعة العقاب من غير تحديد لها، فالغد لم يُرد بعينه، وانما ذكر على وجه التقريب الذي يفيده - ايضا – حرف السين في (سيعلمون) ،فهو إذن لمطلق الزمان المستقبل الذي سيمر بأثقل مايكون عليهم. ولايخلو هذا الموضع من تهويل ظاهر لوقع ذلك الغد عليهم .

وكذا قوله (من الكذاب الأشر) مبني على الابهام ايضاً، أهو النبي صالح أم من كذّبه واتهمه ؟ ((والمراد سيعلمون أنهم هم الكذابون الأشرون لكن أورد ذلك مورد الابهام إيماءً إلى أنه مما لايكاد يخفى))[4] .وبذا يكون قد أخرج المتيقن في صورة المشكوك فيه، وذلك أبلغ وأوقع في نفس المتلقي، لاسيما بعد تحريه المعنى المراد بتدبره النص المبني على الابهام .

وقد يتساءل من يقرأ قوله تعالى: M 3 4 5 6 7 8 9 L [5] ماذا أفاد تنكير(طائف) تنكير(طائف) في هذا النص ؟وليس سوى أنه أفاد الابهام جوابا عندئذ . فابهامه فخّم الحدث وهوله. والمعنى أية حال مزرية آلت إليها تلك الجنة ؟صورة سيظل العقل البشري يحار في تقدير أبعادها ورسم ملامحها، بعد إذ ساقها الله سبحانه وتعالى مبهمة المعالم ضاربة أطنابها في عالم الاحتمالات .

هذا فضلا عن ان المفسرين ذهبوا في تفسير ماهية ذلك الطائف مذاهب شتى محتملة أوجزت في لفظ واحد محققا الابهام بذلك فائدة بلاغية أخرى تضاف إلى التفخيم المشار إليه آنفا، فمنهم من فسره بالنار، ومنهم من قال ان طارقا من أمرالله قد طرقها[6]. وهذا التفسير الثاني لايعدو ان يكون ترجمة لمعنى النص القرآني المبهم ثرا لمعاني نفسه .

---

(١) أمالي المرتضى١/٣٥٠ .

(٢) الكشاف٣/٧٩، وينظر: مجمع البيان٤/٢٣ .

(٣) القمر ٢٦، الأشر: البَطِر المتكبر .

(٤) روح المعاني : ١٤/٨٨ .

(٥) القلم١٩، الطائف : البلاء أو الهلاك الذي لايكون إلا ليلاً .

(٦) ينظر: مجمع البيان٥/٣٣٦، وهناك تفسيرات أخرى يضيق المقام عن ذكرها في الموضع نفسه .

ووصف الباري (سقر) في جملة ماوصفها به بقوله: M V W X L [1] . ومن الواضح ان في هذه العبارة إبهام شديد تحمل المتلقي على الاستفهام : أي صنف من ملائكة العذاب هم؟ ولِم هذا العدد بالذات ؟ لذا انبرى المفسرون لتوضيح ذلك وتفسيره. فالزمخشري أورد غيرمعنى له، منها : تسعة عشر ملكاً، أوصنفاً، أوصفاً، أو نقيبا[2] .

ويرى الطبرسي ان هذا العدد من الملائكة جيء به ليتطابق مع ما أخبر به الانبياء من قبل، أي ليصححه عند المكلفين[3] .

أما الرازي فذكر ان أرباب الحكمة يرون ان عدة أسباب فساد النفس البشرية تسعة عشر سببا، فوكّل الله ملكاً لكل منها يجزي الانسان عليه[4] .

وذهب أبو حيان إلى أنهم الرؤساء والنقباء من الملائكة، أما الكل فلاعبارة تستوفيهم، مستدلاً[5] بقوله: M ¯ ° ± ² ³ ´ L[6].

ونكتفي بما تقدم من تفسيرات للابهام الكائن في هذا النص، لانها كثيرة لامجال لذكرها كلها لضيق المقام . فضلاً عن انها تغني عن غيرها في الدلالة على ماللابهام من فضيلة بلاغية شخصت جلية في تعدد المعاني وتنوع وجهات النظر فيها كلّ بحسب مايُظن أنه المراد، وبطبيعة الحال لاتخرج جميعها عن دائرة الاحتمال على السواء .

ثانياً : **فن الايضاح بعد الابهام**

لم تقف البلاغة القرآنية عند هذا الحد في إيراد النصوص التي تضمنت فن الابهام، وانما تجاوزتها- أحيانا – إلى تفسير المبهم وتوضيحه .

ولايخلو التفسير بعد الابهام من فائدة بلاغية قوامها اشباع شوق المتلقي لمعرفة كنه المبهم، لان المتلقي يتشوق لفك مستغلقاته بلاشك .

وذهب المدني الى ان ((فائدته اما رؤية المعنى في صورتين مختلفتين، الابهام والايضاح، أو ليتمكن المعنى في النفس تمكناً زائداً، لماطبع الله النفوس عليه من ان الشيء اذا ذكر مبهماً ثم بُيّن كان اوقع فيها من أن يُبين اولاً، او لتكتمل لذة العلم، فان الشيء اذا عُلم من

---

(١) المدثر ٣٠ .

(٢) ينظر: الكشاف٤/٦٥٢ .

(٣) ينظر: مجمع البيان٥/٣٨٨ .

(٤) ينظر: التفسير الكبير٣٠/١٧٩ .

(٥) ينظر: تفسير البحر المحيط ٨/٣٦٧ .

(٦) المدثر٣١ .

وجه دون وجه تشوقت النفوس الى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب العلم لذة))[1] . وهـذا الوجه قليل وروده في القرآن الكريم قياسا بالوجه الاول أي الابهام من غير تفسير .

والايضاح بعد الابهام -بعد ذلك- ضربٌ من ضروب الاطناب، لما يقتضيه من تفصـيل وبيان .

وأول نص يورد مثالا لذلك قوله تعـالى: M 7 8 9 : ; < = > L[2] فلقد ذُكر(الصراط المستقيم) مبهما أول مرة ثم أوضح- من بعد – أنه صراطُ من أنعم علـيهم الله بجزيل فضله، ونزههم عما يُغضبه، وعصمهم من الضلال .

ومن أمثلته -أيضا- قوله تعالى في معرض حديثه عن سيدنا لـوط عليه السلام: M 2 3 ´ µ ¶ ¸ ¹ º » ¼ L[3] . فقوله (ذلك الامر) فيه إبهام أُزيل بقوله (ان دابـر هؤلاء مقطوع مصبحين) . ومن الجلي ان التفسير بعد الابهام في هذا الـنص أكّـد المعنـى وقرّره مرتين . الأولى باجماله، ممايثير شوق المتلقي لمعرفة تفسيره . والثانيـة بايضـاحه، ممايشبع رغبته في المعرفة .

ورأى الزمخشري ان (إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له)[4] . وتلك فائدة أخـرى تُرصد في هذا النص . وهاتان : الفائدتان ماكانتا ستتحققان في ما لوقيل : وقضـينا إليـه ان دابر هؤلاء مقطوع مصبحين . فمثل هذا الكلام المباشر لايحقق ماحققه الابهام والتفسير مـن فخامة معنوية هي الغاية في الفصاحة والبلاغة في أداء هذا المعنى .

ومما ورد متضمنا التفسير بعد الابهام قوله تعـالى: M ß Þ Ý Ü Û Ú Ù Ø L â á à[5] .فهذا النص فيه مافيه من الابهام الذي يثير غير سؤال من لـدن المتلقـي، فأي سؤل هذا الذي آتاه الله إياه ؟ وأية منّة أخرى منّ عليه بها ؟ سؤالان يردان فـي ذهنـه، ويظل متشوقا إلى معرفة جوابيهما حتى يفسّرهما النص اللاحق قال تعـالى M ! " # $ % & ' ( ) * + , - . L[6] .

---

(١) انوار الربيع ٣١/٦ .

(٢) الفاتحة ٦-٧ .

(٣) الحجر ٦٦ .

(٤) الكشاف٥٤٦/٢ . وينظر: التفسير الكبير١٦٠/١٩ .

(٥) طه ٣٦-٣٨ .

(٦) طه ٣٨-٣٩، وينظر: مجمع البيان١٠/٤ .

وآخر ما نقف عليه قوله تعالى: M u v w x L[1]، إذ لم يقل : ألم نشرح صدرك، أي من غير(لك). فزيادة الجار والمجرور بين الفعل ومفعوله أفادت الابهام الذي أتبع بالايضاح بعد خلق حالة من التشويق إلى معرفة ماهية ماأبهم، فاذا ماسمع المتلقي(نشرح) تشوق إلى معرفة المشروح، لاسيما ان(لك) تقوّي الابهام فتزيد الشوق في نفسه، حتى يصير النص إلى توضيحه أخيراً، فاذا به يتمكن من ذهنه أيما تمكّن. وكذا الحال من حيث الابهام والتفسير في قوليه تعالى M z } | L[2]، وM £ ¤ ¥ L[3] في السورة نفسها[4] . وقوليه جلّ من قائل M ¨ © ª » L[5] و M ® ¯ ° L[6] .

ثالثاً : الايضاح

الايضاح مأخوذ من وضُح الشيء واتضح وضوحا واتضاحاً: اذا بان، وتوضح الامر: ظهر [7] . فالايضاح إذن (إفعال) من أوضحت الكلام إذا بيّنتهُ [8] .

ولقد ذهب الدكتور احمد مطلوب [9] إلى أن الايضاح فن بديعي من مبتكرات المصري الذي عرفه بأنه ((أن يذكر المتكلم كلاما في ظاهره لبس، ثم يوضّحه في بقية كلامه))[10] . وفرّق- أي المصري- بينه وبين التفسير بأن((التفسير تفصيل الاجمال، والايضاح رفع الاشكال))[11] .

ومن الظاهر -في ضوء ماتقدم- أن فن الايضاح يخالف فن الابهام في الغاية البلاغية التي يؤديها، فالأول يدخل في باب الاطناب، والثاني يفيد الايجاز كما أسلفنا . ويخالفه - أيضا- بان الايضاح يكون في المعنى أو الاعراب، أما الابهام فينحصر في المعاني .

---

(١) الشرح ١.
(٢) الشرح ٢ .
(٣) الشرح ٤ .
(٤) ينظر: الكشاف٤/٧٧٥-٧٧٦ .
(٥) طه ٢٥.
(٦) طه ٢٦ .
(٧) ينظر: اللسان : مادة (وضح)
(٨) ينظر: الطراز ٤٤٩
(٩) ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ٣٦٧/١ .
(١٠) تحرير التحبير : ٥٥٩ . وينظر: الطراز ٤٤٩، انوار الربيع ٣١/٦-٣٢ .
(١١) تحرير التحبير ٥٦٠ .

ومثال الايضاح قول الشاعر[١] :

يذكرُنيكَ الخيـــرُ والشر كلـــه وفيك الحيا والعلم والحلم والجهلُ

فألفاك عن مكروهها متنزّهـــاً وألقـــاك في محبوبها ولك الفضلُ

فالبيت الأول ملتبس المعنى من حيث أنه يقتضي المدح والذم معا، فأوضحه البيت الثـاني وأزال اللبس عن المراد، وهو المدح .

ويجدر بالذكر أن فن الايضاح أقل وروداً هو الآخر من فن الابهام -شأنه في ذلك شأن الايضاح بعد الابهام- في القرآن الكريم بحسب تحرّينا لمواضعه . ولعل تفسير ذلك يعود الـى ان الايجاز أعلى بلاغة من الاطناب، مالم يقتض المقام الاخير، لاسيما أنـه معجـزة لغويـة تحدت العرب الفصحاء الاقحاح،فأعجزتهم .

ومن أمثلة الايضاح قوله تعالى في اليهود مبشراً المؤمنين قال تعالى **J I HM L S RQ P O N M K**[٢] **.**

ففي هذه الآية اشكالان يوقعان في لبس يتأتى الأول من ناحية الاعراب، والثـاني مـن جهة المعنى، أوضحا في آخرها .

وقد تحقق الأول بعطف غير المجزوم (ينصرون) على المجزوم (يولوكم) في الظـاهر، أما الثاني فيتجسد بأن صدر الآية يغني عن فاصلتها، ذلك أن التولي عند القتال دليل الخـذلان والهزيمة وسببهما بلا شك، إذ لايجتمع الخذلان والنصر ألبتة . فالخذلان -إذن- يلازم العـدو ماقاتلهم دوماً . ولم يكن هذا المعنى ليتحقق إلاّ بالفاصلة وماسبقها معا . فقوله (ثم لاينصرون) يفيد ديمومة البشارة إلى الأبد .

وجيء بالفعل المضارع (يُنصرون) من غير جزم مع عطفه علـى المجـزوم لغـرض الافادة مما تدلّ عليه صيغة المضارع في حال الرفع استئنافا من الدلالة على الحال والاستقبال هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان الرفع على الاستئناف إنما يناسب سياق الآيـة مـن دون غيره لأن التولي يكون بسبب القتال، أما استحالة النصر فسببهُ الكفر[٣] . وبالرفع صـار نفـي النصر عنهم وعداً مطلقا[٤] .

---

(١) ينظر : الطراز ٤٤٩، انوار الربيع ٣٣/٦ .

(٢) آل عمران : ١١١ .

(٣) ينظر : مجمع البيان ٤٨٧/٢ .

(٤) ينظر التفسير الكبير ١٥٩/٨ .

وقد أجمل الزمخشري كلّ ماتقدم بتوجيه لطيف لقيمة الايضاح البلاغية في هذا الموضع، تضمنه قوله ((فان قلت: فأي فرق بين رفعه وجزمه في المعنى؟ قلت: لوجُزم لكان نفي النصر مقيداً بمقاتلتهم، كتولية الأدبار .وحين رُفع كان نفي النصر وعداً مطلقا، كأنه قال: ثم شأنهم وقصتهم التي أخبركم عنها وأبشّركم بها بعد التولية أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر والقوة لاينهضون بعدها بجناح ولايستقيم لهم أمر))[1] .

فما العدول من الجزم الذي يقتضيه اللفظ إذن إلى الرفع إلاّ لاثبات حقيقة أن الله أخذ على نفسه عهداً بخذلانهم، وليس أصدق من الله عهداً، فكأنه قيل: ثم أخبركم مبشراً إياكم بانهم لاينصرون مستقبلا أبداً .

ومثل النص المتقدم قوله تعالى: M ¬ ® ¯ ° ± ² ³ ´ µ ¶ ¸ ¹ º L[2] . حيث تضمن فن الايضاح الذي يشخص من خلال ترك عطف (تُنصرون) على (يأتيكم)، إذ جيء بالفعل الأول مرفوعا، بُغية الاخبار الحتمي التحقق بان الله سبحانه لن ينصرهم أبداً لا الان ولا في المستقبل، ذلك أنهم مصرون على عدم الانابة، مُحجمين عن الايمان .

أما قوله تعالى: M y z { | } ~ ¡ ¢ £ ¤ ¥ ¦ L[3] ففيه توضيح لصفة الصديق الذي يبتغيه أهل النار .وهو الصديق الحميم الذي يجوز القرابة ويفوقها مكانة عند الجُهنميين . فالحميم مأخوذ من الاحتمام أي الاهتمام، أو من الحامة أي الخاصة[4].

ومن ينظر في قوله تعالى على لسان الجن: M Ï Î Í Ì Ñ Ò Ó Ô Õ Ö × L[5] يلحظ فن الايضاح كامناً في العدول عن الجزم بعد الفاء في (فلايخاف) إلى الرفع، فلم يقل (لايخف) ، فكأنه قيل: فهو لايخاف، أي: فهو غير خائف، دالاً بذلك على أن المؤمن وحده من دون سواه ناجٍ من الخوف وتبعاته، وأنه مختص بهذا الحكم من دون غيره، فالخوف سمة الآخرين ليس إلاّ. فالكلام -اذن- في تقدير مبتدأ وخبر، فجاز دخول الفاء

---

(١) الكشاف ٤٣٠/١ .

(٢) الزمر ٥٤ .

(٣) الشعراء ٩٩-١٠١ .

(٤) ينظر: الكشاف ٣٢٧/٣ ، التفسير الكبير ١٣٢/٢٤ .

(٥) الجن ١٣ .

عندئذ . ولايفوتنا التنبيه -هاهنا- على ما للجملة الاسمية هذه من دلالة تفوق ما للجملة الفعلية في أداء هذا المعنى وتحقيقه[1].

والنصوص المتقدمة التي اكتنفت فن الايضاح تظهر بجلاء مالهذا الفن من أهمية في تقرير المعاني وتجليتها على أكمل وجه، مما يجعلها قريبة المأخذ، لايَلتبس أمرها على المتلقي.

((المصادر والمراجع))

- القرآن الكريم .
- أمالي المرتضى/الشريف المرتضى(ت٤٣٦هـ)،ط٢، :محمد أبو الفضل إبراهيم،دارالكتاب العربي،بيروت،١٩٦٧.
- أنوار الربيع في أنواع البديع/ابن معصوم المدني(ت١١٢٠هـ)،تحقيق:شاكر هادي،مطبعة النعمان،النجف،١٩٦٨.
- الايضاح في علوم البلاغة/الخطيب القزويني(ت٧٣٩هـ)،دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٨٥.
- تحريرالتحبير في صناعة الشعروالنثر وبيان إعجاز القرآن/ابن ابي الاصبع المصري(ت٦٥٤هـ)،تحقيق: د.حنفي محمد شرف،القاهرة،١٩٦٣.
- تفسير البحر المحيط/أبوحيان الاندلسي(ت٧٤٥هـ)،ط٢،تحقيق:عادل احمد وعلي محمد،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠٧.
- التفسير الكبير/فخرالدين الرازي(ت٦٠٤هـ)،ط٢،دارالكتب العلمية،بيروت،٢٠٠٤.
- ديوان دريد بن الصمة الجشمي، :محمد خير البقاعي،الشركة المتحدة للتوزيع،دار قتيبة للنشر،دمشق،١٩٨١.
- ديوان لبيد بن ربيعة العامري،دار صادر،بيروت،د.ت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/محمود الآلوسي(ت١٢٧٠هـ)،ط٢،دار الكتب العلمية،بيروت،٢٠٠٥.
- سنن أبي داود ، سليمان بن الأشعث الازدي (ت٢٧٥هـ)، تعليق: احمد سعد علي، مطبعة البابي الحلبي بمصر،١٩٥٢ .

---

(١) ينظر: الكشاف ٦٢٩/٤ ، التفسير الكبير ١٤١/٣٠ .

- شـــرح عقـــود الجمـــان فـــي علـــم المعـــاني والبيـــان/جـــلال الـــدين السيوطي(ت٩١١هـــ)،القاهرة،١٩٣٩.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز/يحيى العلـــوي(ت٧٤٥هـــ)،دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٩٥.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيـــون الأقاويـــل فـــي وجـــوه التأويـــل/محمـــود بـــن عمـــر الزمخشري(ت٥٣٨هـــ)،ط٢،دار إحياء التراث العربي،بيروت،٢٠٠١.

- لسان العرب/ابن منظور(ت٧١١هـــ)،نسخة مصورة عن طبعـــة بولاق،الـــدار المصـــرية للتأليف والترجمة والنشر،القاهرة،د:ت.
- مجمع البيان في تفسير القـــرآن/ أبـــوعلي الطبرســـي(ت٥٤٨هـــ)،دار إحيـــاء التـــراث العربي،بيروت،١٣٧٩هـــ .
- المسند/ الامام احمد بن محمد بن حنبل(ت٢٤١هـــ)،دار الحديث،القاهرة،١٩٩٥ .
- معجم المصـــطلحات البلاغيـــة وتطورهـــا/ د.أحمـــد مطلوب،مطبعـــة المجمـــع العلمـــي العراقي،ج١-١٩٨٣،ج٢-١٩٨٦ .
- مفتاح العلوم/ أبو يعقوب السكّاكي(ت٦٢٦هـــ)،القاهرة،١٩٣٧ .